بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حَمْدًا يوافي نِعمهُ ويُكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله العليُّ العظيم، وأشهد أن سيِّدنا وحبيبنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه من خَلْقِه وحبيبُهُ. اللهمَّ صَلِّ وسلِّم على سيدنا محمّدٍ وعلى آل سيدنا محمد عددَ ما تعلمه من بَدْءِ الأمرِ إلى منتهاه، صلاةً وسلامًا أرقى بهما مراقى الإخلاص، وأنال بهما غاية الاختصاص، عدد ما أحاط به علمك، وأحصاه كتابك، وخطّه قلمك، واجمعنا به يا ربّنا فى أعلى علِّيِّين.

أما بعد:

فهذا إمام من أئمة التصوف الإسلامى، وكتابه «القوت» أصل من أصوله، وقد أجاد «ابن عبّاد النفرى» شارح حكم ابن عطاء فى بيان قيمة الكتاب بألفاظ موجزة دالة عندما قال: «أما كتاب أبى طالب فعليه وقع الاختيارُ، إذ لم يقع بين أيدينا مثل منزعه، فإنّه فيه فتحَ مَغالقَ علمِ التصوف، وجمع فيه بين المعانى الصحيحةِ، والألفاظِ الحسنة، وذكر فروعَ علومهم وأصولَها، ورسمَ مسائلها وفصولَها، فكان لذلك كالمدوَّنةِ فى علْمِ الفقهِ، يقوم مقامَ غَيرِه، ولا يقومُ غَيرُهُ مقامَه».

وكذلك قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (الفتاوى ١٠/ ٥٥١): «وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبى حامد الغزالى، وكلامُه أسَدُّ وأجودُ تحقيقًا، وأبعد عن البدعة».

ومن ثَمَّ فإننى أرى أن المكتبة العربية والإسلامية قد خسرت كثيراً عندما غفلت عن تحقيق هذه الموسوعة الإسلامية، ونشرها نشرًا علميًا دقيقًا، على الرغم من الحاجة الماسة إلى مثل هذا النوع من التأليف لحياتنا فى العصر الحديث، وما أصاب المجتمعات الإسلامية من آثار الماديات وإفسادها للقلوب؛ مما نتج عنه كثير من الأمراض النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وحال المسلمين اليوم لا يخفى على كل ذى عقل وبَصَر. ولعلّ هذه النشرة الجديدة التى قوبلت على عدة أصول

مخطوطة تعوض هذا الغبن الفاحش لأبى طالب وكتابه القوت.

وترجع صلتى بكتاب القوت إلى فترة قديمة جدًا إبّان مرحلة الطلب الأولى بمرحلة التعليم الثانوى، إذ يعد كتاب القوت من أوائل الكتب التى قرأت فيها وتعلّقت بها[1]، وتمنيت آنذاك لو يُنشر الكتاب بطريقة ميسرة لجميع طلاب العلم كما كان ينشر آنذاك إحياء علوم الدين. وظلّت هذه أمنية حبيسة فى نفسى زمنًا طويلاً، وقد تقلّبت بى الأيام، حتى قيَّض الله لى الاتصال بالأستاذ الفاضل إسماعيل عبيد صاحب ومدير مكتبة دار التراث، وعرض علىّ فكرة نشر الكتاب محققًا مضبوطًا، فأحيا فى نفسى تلك الأمنية القديمة فى نشر الكتاب، وعلمت أن الله جلّت قدرته قد أذن بتحقيقها، فسارعت من وقتها فى التنقيب عن أصول الكتاب المخطوطة. وبعد المضى قُدُمًا فى قراءة الأصول، هالنى ما رأيته من النصوص الطويلة التى لم تنشر من الكتاب، إذ يقل ما طبع من كتاب القوت بمقدار الثلث تقريبًا عما هو فى أصوله المخطوطة، واستعنت بالله العلى القدير فى قراءة تلك الأصول المخطوطة ومقابلة بعضها ببعض ومعارضتها بالمطبوعة، وكان الانتهاء من هذا العمل هو من فضل الله وحده، لما عانيته من قراءة تلك الأصول وما وجدتُه من المشكلات والتلف، وبعد جهد ولأْي وتوفيق من الله تعالى، استوى كتاب القوت بين يَدَىّ كاملاً غير منقوص.

وبعد:

فإنى أتوجّه لله وحده بالشكر والحمد والتسبيح على أن قيّض لى تحقيق هذا الكتاب وأعاننى عليه، فهو كنز من كنوز الآخرة، ومدرسة عليا لتخريج الفحول والخواص من السالكين، ولا يستغنى عنه مسلم أبدًا فى حياته وجميع أحواله.

كما أشكر الأستاذ الفاضل إسماعيل عبيد، على قيامه بتحمل تكلفة طبع هذا الكتاب ونشره. وأشكر أخى المهندس ياسر الذى ساعدنى فى مقابلة أجد الأصول المخطوطة. ولا أنسى أخى الفاضل الأستاذ ناصر رجب الذى قام على تصحيح

(١) ذلك أننى نشأت فى بيئة مفعمة بالجو الروحى، فى أحضان السّاحة الرضوانية المباركة، بجنوب مصر بالأقصر.

تجارب الطبع وما أبداه من ملاحظات قيمة فكانت له أيادٍ على الكتاب وعلى محققِّه لا تُنسى. كذلك لا أنسى رفيقة الدرب أمّ عبد الرحمن زوجتى وما أعانتنى به من التشجيع وحفز الهمّة والدّعاء لى لأنجز مهمتى تلك على خير وجه. أدعو الله السميع المجيب أن يجزيهم عنى خير الجزاء، وأن يجعل هذا الكتاب وما أنفقتُه فيه من جهد ووقت فى ميزان حسناتى يوم القيامة، وأن ينفع به جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. وأطلب من أخى القارئ الكريم ألا ينسانى من صالح دعائه.

اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد النبى الأُمّىّ وعلى آله وصحبه. اللهمّ إنّى أعتذر إليك من جَهْلى، وأستَوْهِبُك سُوءَ فعلى، فاضمُمنى إلى كَنَفِ رحمتك تطوّلاً، واستُرْنى بستر عافيتك تَفَضُّلاً. اللهمّ وإنّى أتوبُ إليك من كلّ ما خالفَ إرادتك، أو زال عن محبَّتك من خطرات قلبى، ولحظات عينى، وحكايات لسانى، توبة تَسْلَمُ بها كلُّ جارحةٍ على حالها من تبعاتك، وتأمن ممَّا يخاف المعتدون من أليم سطواتك. اللهمّ إنى أمسيت وأصبحت وأنت ثِقَتى ورجائى فى الأمور كلها، فاقضِ لى بخيرها عاقبةً، ونَجِّنى من مُضِلاتِ الفِتن، برحمتك يا أرحم الرَّاحمين، وصلّى الله على سيدنا محمد رسول الله المصطفى، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير الرّاجى عفو ربه

محمود بن إبراهيم بن محمد الرضوانى

دار العلوم ـ جامعة القاهرة

الجيزة ـ مدينة ٦ أكتوبر ـ الحى السابع

ت: ٠١١٣٦٢٥٩٧ ـ ٠٨٠٠٠١١٣٥٠

٢٧ من رجب سنة ١٤٢٢هـ

١٤ من أكتوبر سنة ٢٠٠١م

أبو طالب المكى، وكتابه «قوت القلوب»
«سيرة موجزة»

• نسب أبى طالب:

هو أبو طالب، محمد بن على بن عطية، المكّىّ، الحارثى، العجمى، ويلقّبه الذّهبىّ بالأستاذ[1].

ومن الغريب إغفال المصادر الصُّوفية له، إذ لم تعرِّف به، ولم تُترجم له، على الرغم من رسوخ قدمه فى مجال علم التصوف، وكتابه يُعَدُّ مَعْلمًا مهمًا من معالم علم السلوك. إذ لا نجد له ترجمةً فى طبقات الصوفية للسُّلَمى مع أنه ألّفه فى نهاية القرن الرابع، أى بعد وفاة أبى طالب المكىّ سنة ٣٨٦هـ. كذلك أغفله صاحب «حلية الأولياء»، على الرغم من ـ كما يقول الدكتور عبد الحميد مدكور ـ «أن المكى وأبا نعيم يشتركان فى التّلقّى عن بعض الشيوخ كعلى بن أحمد المصّيصى، وأبى بكر الآجُرّى، وأبى بكر بن المفيد، وأبى بكر بن خلاّد النّصيبى»[2]. ولعل هذا يؤكد المقولة المشهورة: «المعاصرة حجاب».

كذلك لم يذكره القُشَيرى بين شيوخ رسالته، ونحا ابن الجوزى هذا النحو فى كتابه، «صِفة الصَّفوة»، مع أنَّه ذكر المصطفين من عبّاد بغداد المجهولى الأسماء، بل ذكر المجانين والمعاتيه، والمجهولات الأسماء. كذلك أغفله ابن الملقّن فى كتابه «طبقات الأولياء»، والمناوى فى: «الكواكب الدّرّيّة». هذا الإهمال لترجمة هذا العَلَم الكبير أدّى إلى ضياع المعالم البارزة لحياته، حتى إن هذه الترجمات القليلة

(١) ثمة رسالة ماجستير بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة بعنوان: «أبو طالب المكى ومنهجه الصوفى» إعداد عبد الحميد عبد المنعم مدكور ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م، وهى على حد علمى لم تطبع فى كتاب حتى الآن.

وقد أفدت من مقدمتها فى التاريخ لأبى طالب إفادة واسعة، ولو كانت مطبوعة فى كتاب لأحلت إليها وما كتبت هذا التعريف بأبى طالب.

(٢) انظر: أبو طالب، ص ٢١.

التى وصلت إلينا كانت مبتورةً غير دَالة، والمعلومات التى أوردتها ـ على قلّتها ووجازتها ـ «احتوت على بعض الأخطاء التاريخية»[١]، ذكر د. عبد الحميد مدكور من هذه الأخطاء حكاية رويت فى احتضار أبى طالب والصواب أنها ليست فى أبى طالب بل هو الذى رواها فى كتابه عن أحد الصالحين[٢].

وكان أوّل الذين ترجموا لأبى طالب هو الخطيب البغدادى فى كتابه «تاريخ بغداد»، «وكانت ترجمته أساسًا لما تلاها من ترجمات، حيث كان بعضها ينقل عن بعض غالبًا»[٣] دون زيادة أو تحرير لما يكون فيها من أخطاء، كما سأشير إلى ذلك بعد قليل.

لا يحدّد المؤرخون تاريخًا لمولد أبى طالب المكّى، وكل ما يذكرونه أن مولده كان بالجبل (العراق)، ثم هاجر إلى مكة فنشأ بها ونُسِب إليها، ولا تذكر المصادر شيئًا عن تاريخ هذه الهجرة، ولم يحدثنا هو عن أسبابها. وفى مكّة التقى بعددٍ من شيوخه منهم ابن الأعرابى، وأبو بكر الآجرى، وأبو على الكرمانى، الذى يعدّه المكى من الأبدال.

ثم غادر المكّى مكة لعل ذلك قبل سنة ٣٤٦هـ، لأنه جرى خلاف بينه وبين عبد الصمد بن على أحد شيوخ الحديث ببغداد، إذ عاتبه فى السّماع، فأسمعه أبو طالب بيتًا من الشعر فخرج مغضبًا[٤]، وعبد الصمد هذا توفى ببغداد سنة ٣٤٦هـ. ثم دخل البصرة والتقى بشيخه أبى الحسن بن سالم، ثم غادر البصرة إلى بغداد، وكانت بغداد آنذاك مقامًا لكثير من الصوفية، ولما دخل بغداد «اجتمع الناسُ عليه، وعُقِد له مجلس الوعظ بها»[٥].

---

(١) أبو طالب المكى، د. عبد الحميد مدكور، ص ٢٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) السابق، ص ٢٢.

(٤) انظر: البداية والنهاية ١٥/٤٦٨.

(٥) انظر: تاريخ بغداد ٣/٨٩، والمصادر التى نقلت عنه هذه المقولة: البداية والنهاية ١٥/٤٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٦/٥٣٦، وغيرهما.

٥ شيوخ أبي طالب المكي[١]:

تنوَّعَ شيوخُ أبي طالب ما بين فقيه ومحدِّث وصوفي، وقد استقى منهم ثقافتهم مما أسهم في صقل موهبة أبي طالب وتنوع معارفه، وعلى الرغم من قلة المادة العلمية في ترجمة أبي طالب فإنها قد احتفظت لنا بذكر بعض العلماء الذين تلقى عليهم أبو طالب، وأهم هؤلاء:

١ ـ عبد الله بن جعفر بن فارس، وهو محدّث أصبهان، معروف بالصلاح، وقد روى عنه أبو طالب بالإجازة، ت ٣٤٦هـ.

٢ ـ أبو بكر الآجُرِّي، التقى به أبو طالب في مكة بعد أن هاجر الآجرّي من بغداد هربًا من الفتن، وجاور بمكة، وقد أرّخ أبو طالب لدخوله مكة فقال: «قدِم علينا مكة في سنة ثلاثين وثلاثمائة»[٢]. وهو رجل ثقة، ومن حفاظ الحديث، ت ٣٦٠هـ. [انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٣٣ وما بعدها].

٣ ـ علي بن أحمد المصّيصيّ، ت ٣٦٤هـ، وهو موصوف بالتسامح في رواية الحديث.

٤ ـ أبو زيد المروزيّ، ت ٣٧١هـ، وهو من أحفظ الناس لمذهب الشافعي، وله رواية لصحيح البخاري، روى أبو طالب عنه بعض صحيح البخاري.

٥ ـ أبو بكر محمد بن أحمد المفيد، ت ٣٧٨هـ، يوصف بالإكثار في رواية الحديث، ولكنه متهم في روايته. [انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٦٩].

٦ ـ أبو بكر بن خلاد النُّصيبيّ.

وهؤلاء الشيوخ تبرز فيهم صفة الحديث والفقه، وهذا كما يقول د. عبد الحميد مدكور «يفسّر لنا تلك النزعة السلفية التي تعد من الصّفات البارزة في شخصية

(١) انظر: أبو طالب المكي، ص ٥٣ وما بعدها. وانظر: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٦.

(٢) انظر: القوت (الميمنية) ١/ ١٦٥، وقد سقطت «ثلاثمائة» من المطبوعة، أثبتها من نسخة (ك) المخطوطة، لوحة رقم ٨١

المكى وثقافته، والتى اتّضحت فى نظراته التقويمية التى قاس بها كثيرًا من ظواهر الحياة فى عصره... ويبدو أنه تأثر فى بعض آرائه تأثرًا مباشرًا ببعض هؤلاء الشيوخ، فيمكن أن يكون موقفه من علم الكلام امتدادًا لآراء شيخيه: المروزى، والآجرّى. كذلك يمكن أن يُعد موقفه من الحديث الضعيف راجعًا إلى تأثّره بشَيخيه: المصّيصى والمفيد»[١].

٧ ـ أبو عبد الله، محمد بن أبى الحسن أحمد بن محمد بن سالم[٢]، ويرى د. عبد الحميد مذكور «أن المكّىّ التقى بابن سالم وصحِبَهُ، ولعلّ صُحبته له كانت لمدة قليلة، ولكنها كانت كافية لينزل أبو الحسن من نفسه مكانة سامية، وإن كانت المصادر التاريخية تذكر أنه دخل البصرة بعد وفاة ابن سالم»[٣].

٨ ـ أبو سعيد بن الأعرابى البصرى، ت ٣٤١ هـ، بصرى الأصل، سكن بمكة، وكان فى وقته شيخ الحرم، ومات بها، صنَّفَ للقومِ كُتبًا كثيرة[٤]، والتقى به أبو طالب فى مكة.

هؤلاء وغيرهم ممن أخذ عنهم وتتلمذ على كتبهم، وكان معجبًا كثيرًا بالحسن البصرى، وإبراهيم بن أدهم، يسير على نهجهم، وينقل كثيرًا عن سهل بن عبد الله التسترى[٥]، ويلقبه بشيخنا وإمامنا، ويقدّم آراءه على آراء غيره. يقول عن الحسن البصرى مثبتًا إمامته: «والحسن رحمه الله هو إمامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به، أثره نقفو، وسبيله نتَّبع، ومن مشكاته نَسْتضىء، أخذنا ذلك بإذن الله تعالى، إمامًا عن إمام، إلى أن ينتهى ذلك إليه»[٦]. فهؤلاء الشيوخ وغيرهم من أهل العلم

(١) أبو طالب المكى، ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) كذا نسبه فى السير ١٦/ ٢٧٢، وأثبته د. عبد الحميد فى رسالته: «أبو الحسن أحمد بن أبى عبد الله محمد بن أحمد بن سالم» ص ٦١، وانظر: طبقات الصوفية، ص ٤١٤ وما بعدها.

(٣) أبو طالب المكى، ص ٦١ ـ ٦٢، وانظر: وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٣، وأنا أميل إلى ما ذهب إليه د. عبد الحميد، راجع أدلته فى ذلك.

(٤) طبقات الصوفية، ص ٤٢٧، وانظر: تذكرة الحفّاظ للذهبى ٣/ ٨٥٢.

(٥) راجع ترجمته ومصادرها فى طبقات الصوفية، ص ٢٠٦.

(٦) انظر: القوت (الميمنية) ١/ ١٤٩.

«قد أسهموا فى صقل مواهبه الروحية، وتحديد اتجاهه الصوفى، وأمدّوه بزاد من القواعد والتّقاليد التى انتفع بها وهو يضع منهجه، كما أضافوا إليه ثروةً من المعارف التى انتفع بها فى تأليف كتابه القُوت، ويشاركهم فى ذلك عدد كبير من الصوفية الذين امتلأ كتابه بالإشارة إلى أقوالهم وأحوالهم»[١].

• تلاميذه:

من المؤسف حقًا أن يقع أبو طالب ـ وهو العَلَم المشهور ـ «فريسة لإهمال غريب من مؤرخى الصوفية، الذى كان سببًا فى ندرة المعلومات التى نعرفها عنه، ويبدو أن هذا الإهمال قد ضرب أطنابه على من انتسب إليه من التلاميذ والأتباع»[٢].

ومن تلاميذه الذين أوردت بعض المصادر ذكرًا لهم: أبو القاسم بن سرات، وعبد العزيز الأزجى، ومحمد بن المظفر الخياط، وغيرهم. «وإذا لم يكن المكى قد حظى بعدد كبير من التلاميذ، فإنه أصبح فيما بعد أستاذًا لكثيرين ممن تأثروا به، واستشهدوا بآرائه»[٣].

• سلامة عقيدة أبى طالب المكى من البدع:

كان أبو طالب رحمه الله صحيح العقيدة، متبعًا للكتاب والسُّنّة، وهنا أفسح مجال القول للدكتور عبد الحميد مدكور ليبين مَعْلمًا مهمًا من حياة أبى طالب وكتابه، ويُظهر صحّة عقيدته، ويردّ عنه التهمة التى أُلصقت به ظُلْمًا وعُدوانًا، وسوف أسوق كلامه بطوله ونصه لدقته ودلالته فى توضيح ما نحن بصدده؛ لإصابته مفصل القول، يقول: «وإذا اعتبرنا «قوت القلوب» حصيلةً لدروس الوعظ التى كان يلقيها المكى بجامع بغداد ـ وهو لا شك يمثل جانبًا كبيرًا منها ـ فإن لنا

(١) أبو طالب المكى، ص ٥٩.

(٢) السابق، ص ٥٩، ولعل من بقايا الإهمال أيضًا لهذا الشيخ؛ أن تظل مثل هذه الدراسة القيمة ـ أعنى دراسة د. عبد الحميد مدكور ـ حبيسة الأرفف لم تطبع فى كتاب بعد ـ على حد علمى ـ يتداوله الناس ويتعرفون أحوال أبى طالب وعلمه عن قرب.

(٣) السابق. ص ٦١.

أن نَحْدِسَ بالموضوعات والمسائل التى كان يتناولها، فقد كان يتحدث عن تطهير القلب وإخلاص النية... ثم يتناول بالحديث مقامات الصالحين، وأحوال الموقنين، وإخلاص أهل الخصوص من العابدين. ولم يُخْلِ حديثه من (نَقدات) كان يوجهها إلى معاصريه، لتباعدهم عن هدى السلف وانشغالهم بزخارف الدنيا عن القيام بحقّ الله عليهم، وكان يستعين فى ذلك كلّه بمحفوظه من الكتاب والسّنّة، ومعرفته بأحوال السّلف وأقوال الصّالحين، ناثرًا ذلك كله فى أسلوب رائق وعبارة طلية، تتناول موضوعات تحرّك القلب، وتهزّ الوجدان.

ومن شأن ذلك أن يجمعَ القلوب حوله، ومن شأنه ـ أيضًا ـ أن يحرّك الضّغائن والأحقاد لدى ضعاف القلوب الذين يتناولهم بنَقْده، ومن شأن هؤلاء أن يقبّحوا الحَسَنَ، ويَتَسَقَّطوا العثرات والزلات، بل قد يصل الأمر إلى حدّ تحريف الكَلِم عن مواضعه، أو التقوّل على الناس كذبًا وافتراءً. ويبدو أن «المكّى» أصابه من ذلك رشاش، فنُسب إليه أنه خَلَطَ فى كلامه، وأُضيف إليه أنه قال: «ليس على المخلوقين أضرُّ من الخالق. فبدّعه الناس وهجروه»[1]. والجماهير سهلة الانقياد، سريعة التّصديق، ليس لديها الوقت للتحقّق والبحث والتمحيص، وهى لا تملك وسائل ذلك إن أرادته، ومع ذلك كانت تجعل نفسها حكَمًا فى كثير من المسائل الاعتقادية دون أن تكون مزوّدةً بالوسائل المناسبة للفصل والقضاء فيها. ونتج عن ذلك أن امتنع المكّى من الكلام على الناس. ولعل ما حدث للمكّى كان متصلاً بسياسة الدولة التى كانت تلجأ فى بعض الأحيان إلى أن تصدر مرسومًا بألا يقص أحد أو يعظ فى سائر بغداد.

على أنَّ بعض المؤرّخين لم يُسلّم بنسبة هذه العبارة إلى المكّى، فحاول التشكيك فى نسبتها إليه، وعزا ذلك إلى الخطأ فى النقل عنه، ومن هؤلاء «طاش كبرى زاده» الذى يقول: وينسب هذا القول لأبى طالب... إلا أنّ شأن الرجل أعظم من أن يتكلم بأمثال هذا الكلام، ولعل فى النقل عنه خللاً[2]. ويشبه هذا الدّفاع

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٨٩، وهو يرويه عن ابن العلاف الواعظ، وترجمة هذا بتاريخ بغداد ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) مفتاح السعادة ١/ ٤٢٢.

ما ذكره الطُّوسى فى «اللمع» عند دفاعه عن أبى بكر الشِّبلى: «وإنّما يجد المتعنّت فرصة بالوقيعة والطعن فى الكلام المجمل دون المفصّل؛ لأنّ المجملَ ربما يكون له مقدمات لم تبلغ المستمع، والمفصّل يكون مشروحًا مبينًا محررًا والمجمل لا يكون كذلك»[١].

وذهب سبط بن الجوزى فى دفاعه عن المكّى إلى أن هذه الكلمة ربما تكون قد صدرت عن المكّى فى حالة القبض، إن ثبت ذلك عنه، فإنّه كان أورع من أن يتلفظ بمثل هذه الكلمات التى توقع فى المحذورات[٢].

والذى يظهر أن خللاً قد وقع بالفعل فى النقل عنه، ويمكن أن نتأكد من ذلك بالرجوع إلى قوت القُلوب ذاته، فقد تحدّث المكّى فيه عن هذه المسألة بعينها أثناء حديثه عن سعة رحمة الله، وتفضّله على عباده، وغفرانه لهم إذا أقبلوا عليه ولجأوا إليه، وإنها لرحمة تنتزع اليأس من القلوب... «وربما بلّغ الله تعالى العبدَ بحسن الظن به وقوّة الأمل وانطمع فيه جميع ما ذكرناه من مقامات اليقين، بعد أن يكون حَسَنَ اليقين... وربما بلغه منازل الشهداء بشىء واحد يتركه له، أو شىء يؤثره به، لأنه غفور شكور، وأضرُّ شىءٍ على العبد قِلّةُ معرفته به، فلربما كان العبد على تسع كبائر، فيترك العاشرة لوجه الله تعالى، فتكون تلك الخصلة ذرّة إلى جنب تسعة أجبل، فينظر الله تعالى إليه بوجهه لوجهه الذى تركه له نظرة، فتمحو تلك النظرةُ الجبالَ التسعة فتصير هباء منثورًا[٣].

والفارق كبير بين ما يذكره المكّى فى هذا النص، وبين ما يُنسب إليه»[٤].

انتهى كلام أستاذنا الدكتور عبد الحميد عبد المنعم مدكور بمراجعه التى أثبتها

---

(١) اللمع، ص ٤٨٢.

(٢) مرآة الزمان، القسم ٢، ص ١٨٧.

(٣) قوت القلوب، الحلبى (١٩٦١م) ٢/ ١٥٩.

(٤) انظر هذا الكلام الطويل بنصه فى رسالة الماجستير «أبو طالب المكى» ص ٢٨ ـ ٣٠. وثمة تهمة أخرى ألصقت بأبى طالب وهى: نسبته إلى فرقة السالمية. وهذه أيضًا فندها د. عبد الحميد مدكور بما لا يدع مجالاً للشك فى براءته منها، انظر رسالته ص ٦١ ـ ٧٤، فإن المجال يضيق عن سردها هنا.

جزاه الله خيرًا، فقد أبان إبانة كاملة عما يعتمل فى نفسى من هذه القضية منذ أن قرأتها فى ترجمته وقرأت كتاب القوت وقابلته على نسخه المخطوطة؛ فلم أجد فيها مثل هذه التهمة ولا ما يقاربها، ولذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يتعرض لها لعلمه ببطلانها، عندما سئل عن كتاب القوتِ وكتاب إحياء علوم الدين للغزالى، فقال: «وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلامِ أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبى حامد الغزالى. وكلامهُ أسدُّ وأجودُ تحقيقًا، وأبعدُ عن البدعة، مع أن فى «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة»[1].

ولا يقصد الشيخ بالأشياء المردودة مثل تلك التهمة، بل يقصد الروايات التى يرويها عن الأمم السابقة وعن بعض أهل العلم ويجعلها شاهدًا له فى شرح المقامات وغيرها.

وأيًا كانت الدّواعى لنسبة مثل هذا القول إلى المكّى، فإنّه امتنع عن الحديث والوعظ بمسجد بغداد، واستمر على ذلك حتى أدركته الوفاة لستٍّ خلَوْنَ من جمادى الآخرة سنة ٣٨٦هـ.

• مؤلفات أبى طالب:

تشير المصادر التاريخية إلى بعض مؤلفات لأبى طالب لكنها قليلة، ولم يصلنا سوى هذه الموسوعة العظيمة: «قوت القلوب» وهو أهمها، وسيجىء حديثنا عنه بعد قليل. فقد ذكر هو كتاب «مناسك الحج» فى ثنايا القوت. وأشار الذهبى إلى مسند له فى الحديث يضم أربعين حديثًا. أما كتاب «علم القلوب» الذى ينسب إليه، فإن الدكتور عبد الحميد مدكور يرجح أن هذا الكتاب ليس له، ويسوق حججًا قوية ومقنعة فى ذلك[2].

* * *

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٥١.

(٢) انظر: أبو طالب، ص ٧٦ ـ ٧٩.

قوت القلوب

أنّه ببغداد، ولا يعرف على وجه التحديد الزمن الذى كتبه فيه، ويرى د. عبد الحميد مدكور أنه كتبه بعد سنة ٣٦٠هـ، لأنه كتبه بعد وفاة شيخه الآجُرِّى التى كانت فى هذه السنة.

• أهمية هذا الكتاب:

قال ابن عبّاد النفرى شارح حكم ابن عطاء مبيّنًا قيمة كتاب القوت: «أما كتاب أبى طالب فعليه وقع الاختيار، إذ لم يقع بين أيدينا مثل مَنْزَعه، فإنّه فيه فتح مغالق علم التصوف، وجمع فيه بين المعانى الصحيحة، والألفاظ الحسنة، وذكر فروع علومهم وأصولها، ورسم مسائلها وفصولها، فكان لذلك كالمدونة فى علم الفقه، يقوم مقامَ غيره، ولا يقوم غيره مقامه»[1]. هذا كلام رجل خبير بالكتاب وفوائده، فهو كلام دالٌّ على قيمة الكتاب وتفرّده فى بابه، ويمكن أن نبين ما أجملته الفقرة السابقة حول أهمية قوت القلوب فى النقاط الموجزة التالية:

١ ـ أراد أبو طالب من خلال تسمية كتابه «قوت القلوب...» أن يجعله مصدرًا مهمًا وينبوعًا فياضًا لحياة المسلم، إذ أنه معلوم بالضرورة أن القوت مطلب ضرورى لكل ذى روح، وحياة الإنسان تنبع من حياة قلبه، وصلاح جسده نتيجة لصلاح قلبه، وحياة قلبه بالزّاد والتقوى، فكان اختياره هذا اختيارًا لمّاحًا ينمّ عن بَصَرٍ وإشراق نفسٍ، صاغتها مكارم الإسلام، وزانتها رحابة آفاقه، وانفساح نظرته.

٢ ـ انطلق أبو طالب فى جميع مراحل كتابه من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهّرة، يستمد منهما الإشارات والقواعد التى ينطلق منها لوضع منارات الطريق،

(١) الرسائل الصغرى لابن عبّاد، تحقيق الأب بولس، وقد نقلته عن رسالة د. عبد الحميد مدكور: أبو طالب المكى، ص ٨١.

وبيان مدارج السالكين ومنازل السائرين، ويربط بين الأصلين القرآن والسنة وبين التطبيق العملى للسّالكين، فكل حالٍ أو إشارة أو مقالة أو سلوك يخالف القرآن والسنة يوضح خلَله ويبرز ضعفه، ويسقطه من حساب المتقين.

٣ ـ تحليلات أبى طالب للمقامات وإشاراته للأحوال تنمّ عن معاناة حقيقية وتجربة روحية قد خاضها ومرَّ بها، إذ نجده فى كتابه يصف أحوالاً لا يصفها إلا عارف، ويفصل مقامات ويفرّق بين منازلها بصورة لا يعرفها علم اليقين إلا من سلك دروبها وخَبرَ شعابها وذاق من شرابها. ومن ثَمَّ فإن حديثه عن المقامات لم يكن كلامًا صادرًا عن مجرد التأمل النظرى أو تجميع النصوص من هنا وهناك، ورصّها رصًا دون فقه أو تحليل أو إرشاد، ولعل القوت بهذه الميزة يفارق كثيرًا من الكتب التى وضعت فى هذا المجال، ويحلّق وحده فى سماء الشفافية الروحية مخلّفًا غيره فى الأرض.

٤ ـ ولعل أبرز نقطة فى منهجه هو إلحاحه الشديد على بيان الفكرة المطروحة ومحاولة الإقناع بها بكافة السبل المتاحة من الأدلة والشواهد التطبيقية والتحليلات الخاصة. حتى لا يدع مجالاً للتردد أو الشك لدى القارئ فى التسليم والاقتناع ثم البدء فى التطبيق[1]. وكان يعرض ذلك كله فى أسلوب أدبى مشرق، وحجج قوية معتمدة على الكتاب والسنة، ومن خلال عبارات غنية دالة موحية بسلامة الذوق ونصاعة الحجة، وجودة الصياغة، وبلاغة التأثير. قد استهدف بكل حرف فى كتابه غاية قصد إليها، وحرص على إبلاغها، معبرًا فى كل تنظير أو تطبيق عن روح القرآن الكريم وجوهر السنة النبوية.

٥ ـ هذا الكتاب يعوض الإهمال الذى تعرض له أبو طالب من المؤرخين بصفة عامة، ومؤرخى الصوفية بصفة خاصة، ويرد عنه التُّهم التى ألقيت حوله جزافًا دون دليل أو سند، «ويصحح كذلك بعض ما حوته المصادر التاريخية من أخطاء

(١) يضيق المقام لو أردنا أن نذكر أمثلة على ذلك، ولكن أنت واجده فى جميع صفحات الكتاب، وعسى الله أن ييسّر لنا قريبًا إخراج دراسة تفصيلية حول منهج أبى طالب وأسلوبه والفرق بينه وبين من كَتَب فى هذا الميدان سواء من سبقه أو لحق به.

لم يكن تصحيحها ممكنًا بغير الرجوع إلى القوت»[١].

٦ ـ يعتبر هذا الكتاب هو الكتاب الأم فى تاريخ التصوف الإسلامى ومَعْلمًا بارزًا من أهم معالمه، «فهو مع كتاب «اللمع» يمثلان أهم كتابين صدرا عن التصوف الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى، وقد أثّرا معًا فى التصوف والصوفية تأثيرًا عميقًا، مادة ومنهجًا، فظهرت آثار القوت فى الإحياء، والغنية للجيلانى، وعوارف المعارف للسهروردى»[٢].

٧ ـ احتوى الكتاب «على صورة واضحة المعالم محدّدة القسمات للطريق الصوفى، ولما يكلّف به سالك الطريق من مجاهدات ومعاملات، وما يرقى فيه من منازل ومقامات» كما اشتمل أيضًا على «كثيرٍ من آراء الزّهاد الصوفية قبل أبى طالب، مما يجعل الكتاب مرجعًا لا غنى عنه فى معرفة آراء هؤلاء واتجاهاتهم»[٣].

رحم الله أبا طالب؛ صوّر فأحسن التصوير، وبلّغ فأحسن التبليغ، ووصف فأحسن الوصف، وأشاع الحركة والحياة والرّوح والحيوية فى جوانب الطريق إلى الله، فطمأن السّالكين، وحذّر المدعين، فكان عالمًا نفسانيًا، وحكيمًا ربانيًا، وعارفًا روحانيًا، يتسلل بأحواله وتحليلاته إلى هواجس النفوس فيكشفها، وينفذ ببصيرته وقلبه إلى خفايا الصدور وخفقات القلوب فيبصّرها. ويخاطب كلاً بما يعرف من نفسه، وكأنّ القارئ فى حوارٍ خاص مع أبى طالب، وأنه هو المقصود وحده بالخطاب. كذلك كان أيضًا يغوص فى بحار المعرفة، ورقائق الذوق فيكشف عن أخطاء العابدين، وفتور السّالكين، وغرور الجاهلين، وتلبيسات المحبين ووسوسة الزاهدين، فجلّى بذلك صورة السّالك المسلم تجلية واضحة كما جاءت فى القرآن الكريم، وتجلّت فى سنة رسولنا الكريم ﷺ.

ذلك هو بعض ما نكشفه، ونبين عنه، ونشير إليه من جواهر القوت ليدل على ما فيه، فكلّ بيان وتقديم له، لا ينهض بحقّه ولا بحقّ صاحبه، ولا يفى بقَدْره،

(١) أبو طالب المكى. ص ٨١.
(٢) السابق، ص ٨١.
(٣) السابق، ص ٨١.

ولا يصوّر علمه وذوقه. إنه جامعة إسلامية لتخريج أفذاذ الرّجال والفحول والأئمة الكبار، وتجميع مقامات السالكين بعيدًا عن الانحراف والبدع والادّعاء والتقاليد والتزييف، وطلب الدنيا، جامعة لا يعرف قدرها، ولا يطّلع على حقيقتها، ولا يدخل رحابها، إلا من تذوّق منهجها وعاش في جنباتها، واستنار بأنوارها؛ إنه: «قوت القلوب في معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد».

• مآخذ على كتاب القوت:

لا يعنى تقريظنا للكتاب ووصفه بالتفرّد أنه لا يخلو من مآخذ أو نواقص، وإنما النقص سمة من سمات البشر ومن طباعهم، ولذلك فهناك ثمة مآخذ على كتاب القوت أخذها عليه بعض العلماء والدّراسين، ذكرها د. عبد الحميد مدكور، ومنى باختصار:

١ ـ يذكر ابن الجوزى ـ وهو محق ـ أن أبا طالب ذكر في كتابه كثيرًا من الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الليالي والأيام. ولكن منهج أبي طالب كما يقول د. عبد الحميد: أنه كان يقبل الحديث الضعيف إذا كان واردًا في الترهيب والتزهيد في الدنيا ـ وإن اختلف العلماء في ذلك ـ وفي ذكر أهوال القيامة[1].

أقول: لكن تعدى أبو طالب الأحاديث الضعيفة إلى الموضوعة أحيانًا، وتعدّى دائرة الترهيب والتزهيد إلى دائرة الفضائل، ولقد كان ـ رحمه الله ـ في غنى تامّ عن سرد مثل هذه الأحاديث، وليست هي على شرطه في الكتاب ولا من غايته أن يتحدث عن فضائل الأعمال، فلو برّأ كتابه منها لارتفعت قيمته درجات.

٢ ـ بالكتاب أيضًا كثير من الإسرائيليات وأخبار الأمم السابقة، كان ينبغي أن يبرّأ كتابه منها، وروايات تحتاج في قبولها إلى نظر.

أقول: وما أثر عن النبي ﷺ وما روى من سيرة سلفنا الصالح كان فيه غنًى ومقنع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣ ـ وأخيرًا إن الكتاب ينقصه شيء من التبويب والترتيب يجمع شتات ما تناثر

(١) انظر: أبو طالب المكي، ص ٨٢ وما بعدها.

فيه من أجزاء كان ينبغى وصلها لارتباطها الوثيق بعضها ببعض، مثال ذلك الحديث عن الصلاة فقد جاء مفرّقًا فى مواطن عدّة.

أقول: على أيّة حال فإن هذه المآخذ تعد شيئًا هينًا فى جنب روعته وجماله، ولا تؤثر على الغاية التى وضع من أجلها، بل لعلها كانت فى بعض المواطن سببًا للإثارة والإمتاع.

• شرح القوت واختصاره:

ـ يوجد شرح للقوت كتبه أبو عبد الله الطبرى بن عبد الله، وسمّاه: «تبسيط كتاب قوت القلوب فى معاملة المحبوب». منه نسخة على الميكروفيلم بمعهد المخطوطات برقم ٨١ تصوف، ولكنها رديئة التصوير لا ينتفع بها.

ـ واختصره محمود بن على بن محمد القاشانى فى كتاب سمّاه: «لباب القوت من خزائن الملكوت»، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٩٦٥ تصوف طلعت، وهى فى ١٢٠ ورقة وتاريخ نسخها ١١٢١هـ.

• أثر الكتاب فى اللاحقين:

يمثل أبو طالب وكتابه مَعْلمًا بارزًا مهمًا من معالم التصوف وكتب السلوك، بما يشتمل على كثير من آراء الزهاد والصوفية وأحوالهم وتجاربهم قبل أبى طالب وفى عصره مما يجعل الكتاب مرجعًا لا غنى عنه فى معرفة آراء هؤلاء واتجاهاتهم، ومن ثم فقد اتكأ عليه بعض الذين كتبوا فى منهج القوت من التصوف، فنجد تأثيره ظهر جَليًا عند عبد القادر الجيلانى ت٥٦١هـ فى كتابه «الغُنية لطالبى طريق الحق عز وجل»، وعند شهاب الدين السَّهرورْدى ت٥٣٩هـ فى كتابه «عوارف المعارف»، وعند الغزالى ت٥٠٥هـ فى كتابه الإحياء. وأكتفى بهذه الإشارة إلى مثل هذا التأثير، ومن أراد التفصيل حول ذلك فليرجع إلى ما كتبه د. عبد الحميد مدكور[1].

والآن بقى الحديث عن الأصول المخطوطة التى تم اعتمادها فى تحرير هذه النشرة الجديدة من كتاب القوت، وهذا هو حديثنا فى الصفحات التالية.

(١) راجع: أبو طالب المكى، ص ١٣٤ ـ ١٥٤.

النسخ المخطوطة المعتمدة فى التحقيق

اعتمدت فى إخراج هذه النشرة المحققة على النسخ التالية:

١ ـ نسخة دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٣ تصوف.

٢ ـ نسخة أخرى من دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٤.

٣ ـ نسخة مكتبة فيض الله بتركيا برقم: ١٢٤٩.

٤ ـ نسخة مكتبة جار الله بتركيا برقم: ١٠٧٦.

٥ ـ نسخة مكتبة ولى الدين بتركيا برقم: ١٧٥٧.

٦ ـ مطبوعة الميمنية لقوت القلوب وهى الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٣١٠هـ.

• **وصف النسخ:**

١ ـ نسخة دار الكتب المصرية ورمزها (ك):

هى من مخطوطات دار الكتب المصرية برقم. ١٥٤٣ تصوف طلعت، ورقمها فى الميكروفيلم ٧٣٨٣، وعدد أوراقها ١٨١ ورقة فى كل ورقة وجهان أو صفحتان فى كل صفحة ٤٣ سطرًا، ويحتوى السّطر الواحد غالبًا على ٢٣ كلمة، ومقاس الأصل ٣٠ × ٢٢سم، كتبت بخط مغربى دقيق، خالية من التشكيل، وليس بها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، وتشمل هذه النسخة الكتاب كاملاً، وعنوان الكتاب فيها كالآتى:

«كتاب قوت القلوب فى معرفة الطريق إلى معاملة المحبوب».

توجد فى هذه النسخة زيادات طفيفة على ما فى المطبوعة، لكنها فى الوقت نفسه تخلو منها بعض النصوص المطبوعة. وليس بها ذكر للفصول ولا ترقيم تلك الفصول المذكورة فى المطبوعة، ونجدها أحيانًا تصدّر العنوان بكلمة: كتاب، أو باب.

وقد وجدت بها خللاً فى ترتيب أوراقها، مما أخلّ بالمادة العلمية فى بعض الفصول، وكان هذا الخلل دقيقًا جدًا، وبعد جَهْد ولأْيٍ يسّر الله إصلاح هذا الخلل.

قسّم ناسخ المخطوط الكتاب إلى خمسة أسفار، وهذا التقسيم جاء فى ثنايا الفصول. وتكمن أهمية هذه النسخة فى أنها اشتملت على الكتاب كاملاً، وصححت بعض التصحيفات التى لحقت بالمطبوعة، كما أن زياداتها الطفيفة كانت مهمة وتجيء فى موضعها من النص.

٢ ـ نسخة أخرى من دار الكتب المصرية، ورمزها (د):

وهى تقع فى ١٨٧ لوحة، فى كل لوحة وجهان أو صفحتان، فى كل صفحة ٢٦ سطرًا وفى كل سطر ١٤ كلمة تقريبًا، وهى مكتوبة بخط نسخى، قليلة الخطأ، خالية من التشكيل، وناسخها هو عبد الله بن أحمد المقدسى، فرغ من نسخها سنة ٤٩٢هـ.

تضم هذه النسخة نصف الكتاب تقريبًا، حيث يوجد منها الجزء الثانى فقط، ويبدأ من باب: «ذكر فضائل التارك للكسب» وهذا يقع ضمن الفصل الثانى والثلاثين من الكتاب، وتنتهى النسخة بنهاية كتاب القوت.

توجد بهذه النسخة زيادات كثيرة جيدة ومهمة أثبتها بعد مقابلتها بالنسخ الأخرى.

٣ ـ نسخة مكتبة فيض الله، ورمزها (م):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة فيض الله بتركيا برقم: ١٢٤٩، ومنها صورة على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات برقم: ٢٤٠ ق تصوف، وتقع هذه النسخة فى جزأين، يوجد منها بمعهد المخطوطات الجزء الثانى فقط، ويبدأ من: «شرح مقام التوكل» وذلك فى الفصل الثانى والثلاثين، وتنتهى بنهاية الكتاب.

ويقع هذا الجزء فى ٢٣٢ ورقة أو لوحة، فى كل لوحة صفحتان، وفى كل صفحة ٢٩ سطرًا، ومقاسها ١٦,٥ × ٢٦سم، كتبت بخط نسخى قديم،

مضبوطة بالشكل، وناسخها هو محمد بن الحسن بن منصور، فرغ من نسخها سنة ٥٧٠هـ.

وتشمل هذه النسخة زيادات كثيرة جدًا على ما في المطبوع وعلى نسخة (ك)، غير أنه وقع فيها اضطراب في أوائل النسخة، كما وقع فيها خلط في ترتيب الأوراق، وتكثر بها التصحيفات والأخطاء في الكتابة أو الضبط، لكنني أفدت منها كثيرًا وأثبت جميع الزيادات التي وردت بها واتخذتها أصلاً في الجزء الذي أوردته، وقابلت عليها بقية النسخ المخطوطة والنسخة المطبوعة.

ويمكن القول: إن نسختي (م، خ) تشكلان معًا ثلاثة أرباع الكتاب، وعليها كان مدار هذه النشرة من الزيادات التي أثبتها، عدا بعض الزيادات التي وجدتها في بعض النسخ، ولم أجدها في هاتين النسختين فكنتُ أثبتها في موضعها مع الإشارة إلى مصدر الزيادة.

٤ ـ نسخة مكتبة جار الله، ورمزها (خ):

وهي نسخة محفوظة بمكتبة جار الله بتركيا برقم: ١٠٧٦، ومنها صورة بمعهد المخطوطات على الميكروفيلم برقم: ٣٤٠، وهي تقع في ثلاثة أجزاء يوجد منها الجزء الثاني فقط بمعهد المخطوطات، ويبدأ من شرح مقامات اليقين، وهو بداية الفصل الثاني والثلاثين، وتنتهي بنهاية كتاب الزهد، ويتلوه شرح مقامات التوكل.

وهي مكتوبة بخط نسخي نفيس، وقد ضبطت بالشكل الكامل ضبطًا صحيحًا متقنًا، قليلة الأخطاء، وناسخها هو عبد الله بن الحسن بن عبد الواحد بن بندار. فرغ من نسخها سنة ٥٦٢هـ، وعدد أوراقها ١٩٥ ورقة، في كل ورقة صفحتان، في كل صفحة ٢٣ سطرًا، مقاسها ١٩ × ٢٨,٥سم.

اتخذتها أصلاً في الجزء الذي أوردته من الكتاب، إذ وجدت فيها زيادات كثيرة على المطبوعة، وصوبت كثيرًا من تصحيفات المطبوعة وتحريفاتها للنص، وتبدأ هذا الزيادات قليلة ثم تزداد شيئًا فشيئًا مع منتصف المخطوط، حتى تصل الزيادة أحيانًا إلى صفحات طويلة متصلة لا يوجد منها شيء في المطبوعة. ولكن للأسف

الشديد يوجد بها أماكن كثيرة مطموسة بيضاء فى التصوير وفى كثير من صفحاتها ـ وخاصة فى أواخر المخطوط ـ طمس فى النصف الأسفل من الأوراق، مما شكّل معاناة شديدة فى قراءة الكثير منها.

٥ ـ نسخة مكتبة ولى الدين، ورمزها (هـ):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة ولى الدين بتركيا برقم: ١٧٥٧، منها صورة بمعهد المخطوطات على الميكروفيلم برقم: ٣٣٩ تصوف، وهى تقع فى مجلدين منها المجلد الثانى فقط بمعهد المخطوطات، ويبدأ «بشرح مقام الشكر وأوصاف الشاكرين» وتنتهى بنهاية كتاب القوت، وعدد أوراقها ٤٦١ ورقة فى كل ورقة صفحتان، وكتبت بأكثر من خط، من ص١٧٦ إلى ص٢٢٥ كتبت بخط نسخى حديث، أما بقية المخطوط فيرجع تاريخ النسخ إلى سنة ٥٥٨هـ، ولكن لا يوجد اسم الناسخ، وعدد الأسطر فى الجزء المنسوخ حديثًا يصل إلى ١٥ سطرًا، بينما فى الخط القديم فيصل إلى ٢١ سطرًا. وتوجد بها زيادات فى الجزء المكتوب بخط قديم، بعض هذه الزيادات يوجد فى النسخ الأخرى، وبعضها ـ وذلك فى كتاب الأطعمة ـ لم أجده فى غيرها.

وأشار أبو طالب فى كتاب الأطعمة بهذه النسخة أكثر من مرة إلى الزيادات على الأصل الأول، راجع كتاب الأطعمة من هذه النشرة، ولذلك فقد أثبته كاملاً عن هذه النسخة مع إشارات أبى طالب إلى تلك الزيادات.

كذلك أُشير فى حاشية أحد الأوراق أنه ترك مقدار كراستين من النص، مما يدل على أن الناسخ ترك هذا إمّا لأن الأصل الذى نقل عنه لم يكن واضحًا أو أن فيه خرمًا.

وتخلو هذه النسخة من الضبط والنقط أحيانًا، وتكثر بها التصحيفات، وأن الناسخ أحيانًا لا يبصر موضع قدمه، وكان يضرب كثيرًا على الكلام المكتوب ويصححه بالحاشية، أو يتركه. على أية حال قد يسّر الله تعالى الإفادة منها إفادة كاملة وأسهمت إسهامًا بيّنًا فى توثيق نصوص المخطوطات الأخرى. والحمد لله أولاً وآخرًا.

وهناك بعض المخطوطات حديثة النسخ تركت الاعتماد عليها.

٦ ـ المطبوعة الميمنية ورمزها (ط):

وهى الطبعة الأولى لكتاب قوت القلوب، طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ وقام على تصحيح هذه النشرة الشيخ محمد الزهرى الغمراوى، رحمه الله، وصدرت فى جزأين، يشمل الجزء الأول ٢٧١ صفحة، والثانى ٢٩٨ صفحة، فى كل صفحة ٣٦ سطرًا. ووضع على حاشية الجزء الأول كتاب: «سراج القلوب وعلاج الذنوب»، للشيخ أبى على زين الدين على، وعلى حاشية الجزء الثانى كتاب: «حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب».

لم يذكر الشيخ محمد الزهرى ـ رحمه الله ـ الأصل الذى نشرها عنه وهى مع ذلك لا توافق موافقة تامة أيًا من النسخ المعتمدة، ولذلك اعتمدتها نسخة من نسخ الكتاب وبخاصة فى بداية الكتاب وحتى بداية نسخة (خ) وقابلتها مع النسخ المخطوطة جميعًا حتى نهاية الكتاب، وما وجدته من زيادة لم ترد فى الأصول المخطوطة أثبته، وقد آزرت هذه النسخة وأيدتها نسخة (ك) المخطوطة والتى شملت الكتاب كله. ووجدت فيها أيضًا خلطًا فى ترتيب الأوراق لم يتنبه إليه الناشر[1]، وذلك فى «الفصل السابع والثلاثين» ج٢/ ١٥١ سطر ٤ بعد قوله: «ارتكاب المعاصى» إذ جاء بعد هذا الكلام جزء من الفصل الذى يليه والموضوع فى هذا الفصل يختلف عن الذى يليه، وقد أشرت إلى هذا الخلط فى موضعه من الكتاب. ومن الغريب أنه قد حدث خلط فى كل نسخة من النسخ المخطوطة السابقة عدا نسخة (هـ) وذلك فى ترتيب الأوراق، وكان يختلف الموضع من نسخة إلى أخرى، ويسّر الله بفضله تصحيحها جميعًا.

* * *

(١) أشار د. عبد الحميد مدكور فى رسالته إلى هذا الخلط ولكنى لم أطّلع عليه إلا بعد أن أصلحته من الأصول المخطوطة التى بين يدىّ، انظر: أبو طالب المكىّ، ص ٨٧

منهجي في تحقيق هذه النشرة الجديدة من القوت

١ ـ قابلت بين النسخ المخطوطة وعارضتها بالنسخة المطبوعة، ونسخت نسخة (خ) ونسخة (م)، واعتمدتهما أصلاً للكتاب من بداية «شرح مقامات اليقين»، وحتى نهاية الكتاب، وأثبت جميع الزيادات التي أوردتها النسخ الأخرى ولم تكن بنصها أو بمعناها في هاتين النسختين، عدا «كتاب الأطعمة» فقد اعتمدت في نصه على نسخة (هـ) لزياداتها الوافية الموثقة.

أما في القسم الذي يسبق «شرح مقامات اليقين» فقد اعتمدت فيه على النسخة المطبوعة مع نسخة (ك) وأثبت الزيادات الطفيفة والتصحيحات التي أفدتها من النسخة المخطوطة.

وبذلك تكون هذه النشرة قد جمعت جميع النصوص التي وصلت إلينا عبر هذه الأصول في نص واحدٍ متكامل متناسق، وتتلافى النقص الفاحش الذي كان بالنشرات المطبوعة من قبل.

٢ ـ نظرًا للكثرة الفاحشة في الأخطاء والتصحيفات التي لحقت المطبوعة والاختلافات المتعددة بين المطبوعة والأصول المخطوطة، كنت أغفل أحيانًا الإشارة إلى حال المطبوعة وأكتفي بإثبات النص الصحيح، حتى لا يُشغل القارئ بتتبع ذلك ولا يزاحم بقية التعليقات المطلوبة الإشارة إليها أو الزيادات المهمة في الهوامش.

٣ ـ اقتصدت اقتصادًا بيّنًا في التعليق على كلام أبي طالب، وذلك لأمرين:

الأول: وضوح كلام أبي طالب، ومحاولته الدائبة لتأكيد ما يقول بكل الطرق وحشد الأدلة والشواهد لذلك، ويسوق هذا كله في عبارة مشرقة ناصعة البيان، بليغة التصوير، وأي تعليق عليها قد يفسد جمالها ويعكّر صفوها، فتركت القارئ يتمتع بذلك دون تدخّل مني.

الثانى: كثرة الهوامش تشغل القارئ عن متابعة المؤلف، وتشتت ذهنه، وهذا الكتاب كتاب سلوك يحتاج إلى تركيز بالعقل والقلب وعدم الالتفات.

٤ ـ أرجأت تخريج الأحاديث والآثار والتعليق عليها إلى نهاية الكتاب، وستخرج وافية مع الفهارس التفصيلية للكتاب فى مجلد مستقل. وقد يرى البعض أننى بذلك قد ارتكبت جريمة لا تغتفر فى حق الكتاب والتحقيق، للذين لا يرون من التحقيق إلا تخريج الحديث وحسب، أما أن يقيم نصًا أو يضبط مشكلاته فهذا ليس مهمًا عندهم، ولكنى أتأنى القارئ الكريم فى الحكم حتى يرى بنفسه حجتى.

٥ ـ اعتنيت عناية شديدة بعلامات الترقيم وبدايات الفقرات وضبط المشكل منه، لأن لهذا العمل دورًا مهمًا جدًا فى قراءة النص وفهمه، وأكاد أقطع أن هذا العمل هو أجلّ وأهم خدمة يمكن أن تقدَّم لمثل هذا الكتاب وغيره من كتب التراث بعد استكمال النص بمقابلته على الأصول المخطوطة؛ لأن ما نشاهده من خلل العلم بصفة عامة وخلل التطبيق فى المجتمع الإسلامى بصفة خاصة، وكثرة الفرق والأهواء والزيغ والضلال، إنما يتأتى للمسلم من جهله بقراءة النص قراءة صحيحة لتهيئ فهما صحيحًا ومن ثَمَّ تطبيقًا صحيحًا، فلو اختلت القراءة وأُعجمت، اختل ما بعدها كله، ولولا أننى أخشى أن يخرج بى الحديث عن مساره ويطول لبينتُ بجلاء خطورة عدم ضبط القراءة وما تؤدى إليه من المفاسد التى نكتوى بنارها فى مجتمعاتنا اليوم وقبل اليوم، ولكنى أكتفى بأن أوجه القارئ إلى ما كتبه بعض الأعلام أمثال ابن السِّيد البطليوسى فى كتابه المهم «التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين»، وما كتبه شيخ العربية أبو فهر محمود شاكر فى «أباطيل وأسمار» و «المتنبى»، وغير هذه الكتب كثير.

٦ ـ يوجد أمر أود أن ألفتَ نظر القارئ إليه، وهو الاختلاف البيِّن بين النسخ المخطوطة والمطبوعة من حيث الزيادة والنقصان، وقد يكون مثيرًا للتساؤل: كيف تجيء نسخ الكتاب متفاوتة بهذه الدرجة، حيث توجد بعض النصوص فى النشرة الميمنية لا توجد فى جميع النسخ، وتوجد نصوص كثيرة وطويلة جدًا لا توجد فى

المطبوعة ولا فى كل النسخ وإنما تتفاوت الزيادة تفاوتًا بيّنًا بين النسخ؟!

ويكفينى فى الردّ هنا ما ذكره أبو فهر محمود شاكر ـ رحمه الله ـ فى برنامج طبقات فحول الشعراء عندما بيّن مثل هذه المشكلة فقال: «أمر مألوف كلَّ الإلْف، أن يوجد من كتابٍ واحدٍ، لمؤلفٍ واحد، نسخٌ يكثر عددها أو يقلّ يتردد جميعها بين التمام والنقص، وبين الاختصار الهيِّن والاختصار المبين، ويكون ذلك من فعل من أدّى إلينا الكتاب عن مؤلفه. بل إنّ المؤلف نفسه قد يترك بين يدى تلامذته نُسخًا من كتابه، بعضُها أتمُّ من بَعْضٍ، بما أدخل هو نفسه على كتابه، على تطاول السّنين، من زيادة أو حذف أو تبديل أو تغيير. أمرٌ مألوف كلَّ الإلف، وإن غفل عنه من غفل، وإن أغفله أيضًا مُتعمدًا من أغفله. . . مألوف من فعل رواة الكتب وناقليها إلينا، ومألوف أيضًا أن يفعله المؤلفون أنفسهم، إذا بدا لهم أن يزيدوا فى الكتاب، أو يحذفوا منه، أو يبدّلوا أو يُغيِّروا»[1].

كلام أبى فهر هذا يؤكد لنا ما وجدناه فى النسخ التى وصلت إلينا من كتاب القوت، إذ نجد فى بعض النسخ زيادات طويلة هى من المؤلف نفسه، فهو يريد أن يؤكد الفكرة ويثبتها فى نفس القارئ، فيزيد فى الشواهد والأدلة ويبسط فى التعليقات وتبيين الأوجه الغامضة، وهذا ما لمسته بوضوح فى زيادات القوت، فهى لم تزد ـ غالبًا ـ موضوعًا لم يكن فى القوت، أو تستحدث عنوانًا جديدًا ليس له أصل بالكتاب، وإنما زياداتها تكشف عما طرحه أبو طالب فى كتابه من قبل، وتحلل الأوجه المشكلة منه، وتذلل صعوباته النّاجمة عن قلّة الشواهد أحيانًا، أو إيجاز العبارة أحيانًا أخرى، خاصة أن جزءًا من الكتاب كان نتيجة الدروس والمواعظ التى كان يلقيها فى جامع بغداد، ومن طبيعة الإلقاء فى الدروس أنه يختلف من آن لآخر من حيث الزيادة والبيان، إذ يتفتق ذهن المحاضر فى كل يوم عن جديد.

٧ ـ تجزئة الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ـ كما هو عليه الآن ـ من صنع المحقق، نظرًا للاختلاف الشديد بين النسخ المخطوطة فى تجزئتها للكتاب.

(١) برنامج طبقات فحول الشعراء، أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بمصر، ص ٤٤.

وبعد:

فقد بذلت جهدى، وتحرَّيتُ الصواب ما استطعتُ، فما كان فيه من إحسان فمن الله، وما كان فيه من زَلَلٍ فمنِّى، وأسأل الله أن يتغمّد ما أخطأتُ فيه، وأن يكتب لنا من السَّدادِ فى أعمالنا ما هو له أهل من تفضّله على خَلْقه ومنّه على عباده.

اللهمّ إنى أسألك عونًا لا ينقطع، وسدَادًا لا يُمَنُّ، وتوفيقًا لا يُحبس عنِّى خيرُه، برئتُ إليك ربّى من الحَوْلِ والقُوّةِ، كما بَرِئتُ من الشركاء والأنداد.

اللهم إنى أسألك أن ترحمنى إذا انقضى أجَلِى، وانقطع عمَلى، ولبستُ كَفَنِى، وفارَقْتُ سكَنِى، اللهم اغفر لى خطيئتى يوم الدِّين.

وكتبه الفقير الراجى عفو ربه

محمود إبراهيم الرضوانى

لوحة العنوان من الأصل (ك)

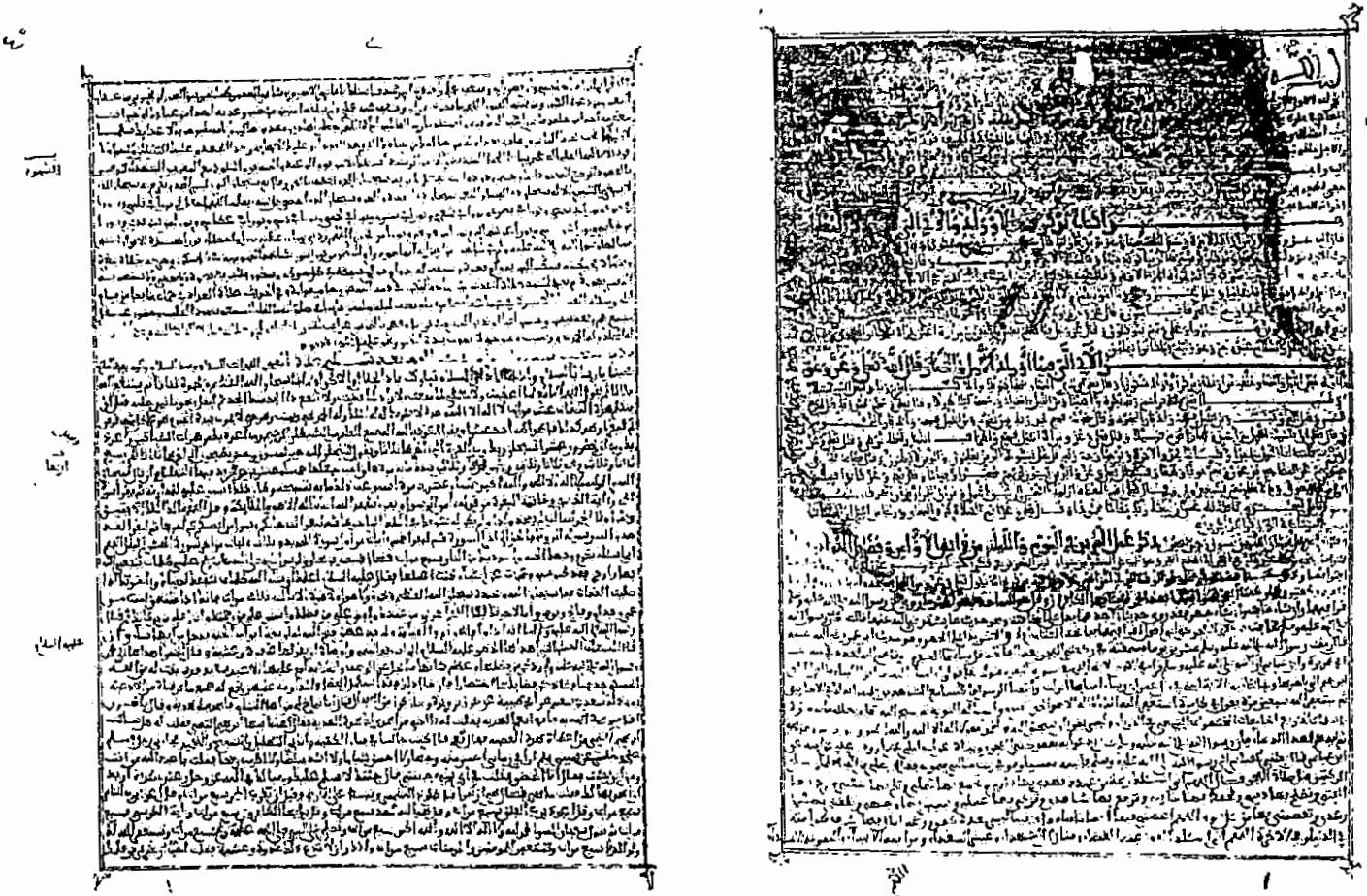

اللوحة الأولى من الأصل (ك)

اللوحة الأخيرة من الأصل (٥)

(هـ)

شرح مقام الشكر وأوصاف الشاكرين وهو الثالث

قال الله تعالى: ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم، فقدّم الشكر على الإيمان ورفع بوجودهما
العذاب ٥ وقال الله تعالى: وسنجزي الشاكرين ٥ وروي عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم: الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر ٥ وقال عبد الله بن مسعود: الشكر
نصف الإيمان، وقد أمر الله عز وجل بالشكر وقرنه بالذكر في قوله: فاذكروني
أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ٥ وقد عظّم الله الذكر في قوله: ولذكر الله أكبر
فصار الشكر أكبر لاقترانه به، ورضي بالشكر مجازاة من عباده لفرط كرمه، ذلك قوله:
فاذكروني أذكركم واشكروا لي، خرج في لفظ المجازاة تحقيق الأمر وتعظيم الشكر، لأن
الفاء للشرط والجزاء، والكاف المتقدمة للتمثيل، فقوله: فاذكروني متصل بقوله:
كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكروني واشكروا لي، والمعنى كمثل ما أرسلنا فيكم رسولاً
منكم فاذكروني، والعرب تكتفي من مثل بالكاف كما اكتفت من سوف بالسين في قوله:
سنستدرجهم، فهذا تفصيل للشكر عظيم لا يعلمه إلا العالمون به.
وقد روينا في أخبار أيوب صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: إني رضيت
بالشكر مكافأة من أوليائي، في كلام طويل، وفي أحد الوجوه من قوله تعالى:
لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال: طريق الشكر، لأن الشكر طريق قريب

يوصل إلى الله تعالى لا يقطعه إلا الشاكرون، ولولا أن الشاكر حبيب رب العالمين ما قصده اللعين
في قوله: ولا تجد أكثرهم شاكرين، كذلك قال عز وجل: وقليل من عبادي الشكور، كما قال:
فقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع
الشكر ولم يستثن فيه، واستثنى في خمسة أحوال: في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة
والتوبة، فقال: فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء، وقال: فيكشف ما تدعون إليه إن شاء،
وقال: يرزق من يشاء بغير حساب، وقال: ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ٥
وختم بالمزيد عند الشكر من غير استثناء فقال: لئن شكرتم لأزيدنكم، فالشاكر على المزيد،
والشكور في نهاية من المزيد، وهو الذي يكثر شكره على القليل من العطاء، ويكثر شكره
الشكر ثناء على المنعم بذكر النعم، وهذا خلق من أخلاق الربوبية، والمزيد هو لما
الشكر عليه ثانياً، فأفضل المزيد حسن اليقين ومشاهدة الأوصاف، وأول المزيد شهادة
النعمة أنها من المنعم بها عن غير حول ولا قوة إلا به، وأوسط المزيد دوام الحال ومتابعة
الخدمة والاستعمال، وقد يكون المزيد أخلاقاً، وقد يكون علوماً، وقد يكون في الآخرة دون
عند الله العاجلة، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة وختام نعيمهم في
قوله: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وقال: وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، ولولا أنه
أحب الأعمال إليه ما أبقاه عليهم لديه ٥ وروي في مناجاة أيوب صلى الله عليه وسلم

اللوحة الأولى من الأصل (هـ) خط حديث

قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية